سلسلة ورقة بحث (١٠)

المثال الممنوع

ميثاق طالب كاظم الظالمي

سلسلة ورقة بحث

(١٠)

المثال الممنوع

ميثاق طالب كاظم الظالمي

(٣)

لا ينفك علماء الإلهيات والباحثون في هذا المجال من ذكر أمثلة لتقريب أفكارهم العقدية والمُستدل عليها عندهم بالبرهان فنرى تقريبا مثاليا لقدرة الله تعالى وعلمه وقاهريته ورحمته ولطفه وغضبه وانتقامه ...الخ ، وكذلك تقريب صفاته واسمائه وتقريب صورة العلاقة بينه وبين مخلوقاته .

بل إن التقريب بالمثال وصل لتقريب مفاهيم ميتافيزيقية بطريقة مادية بحتة ، أتذكر بهذا الصدد تقريب النظرية الإسلامية المُتعلقة بالأمر بين الامرين بمثال اليد الكهربائية وحركتها وتأثير التيار الكهربائي عليها .

والتقريب بالمثال لا ينحصر على هذا النوع من العلوم بل نجده مُتجسدا بوضوح في العلوم الطبيعية التي تعتبر المثال ركناً شامخاً في بنائها المعرفي ، وربما لا تجد علماً طبيعياً لم يسمح بتقريب نظرية أو فكرة في ذلك العلم بأمثلة كالتقريبات بالأمثلة الحسية لنظرية التطور لداروين أو محاولات التقريب الشديدة بالمثال في الفيزياء عموما ونظرية الكم خصوصا.

ولا نستغرب إذا كان التقريب بالمثال يستعمل لخدش أو تثبيت عقيدة دينية معينة ، فنجد أن كثيراً من أفكار الإلحاد بُنيت على تقريبات بالمثال لأفكار دينية لتنتهي بنتيجة صادمة عند البعض منهم.

والتقريب بالمثال ـ لا أدري بالدقة ـ هل أن له نقطة بداية في خارطة الزمن المعرفي؟

إن ملاحظة الأسئلة الأولى التي تصدر من الأطفال في بدايات تعليمهم نراهم ـ بحواسنا ـ يستعملون طريقة روتينية لصناعة أمثلة كالمثال الشهير باستبدال الرقم الحسابي بالتفاحة ، فتقريب عملية الجمع عند طالب في بدايات خطواته الأولى نحو التعليم، وترويضه تعليميا للتعامل وصناعة أمثلة من موجودات عينية للتعبير عن تلك الصورة المُجردة للأرقام هو ما نراه متجسدا بوضوح في اسلوبنا التعليمي معه بطريقة مقصودة او غير مقصودة ، فلو كان الطفل يُمثل انطلاقة الفكر نحو المثال لكان هنالك مُسوغا لصناعة أمثلة تعليمية محاكية لِمُستواه التفكيري ، لكن انطباق العمر الزمني للفكر مع الطفل أمر يحتاج إلى تأكيد وليس هنا محله.

لكن لِنعلم أن لا دليل يُثبِت أنّ سعة الاستعمال للمثال لا تعكس وجوده الافتراضي في المراحل البدائية لنمو الإنسان الفكري فهذا أمر لا يمكن إثباته في هذا المستوى التعليمي للورقة.

والرياضيات المُتقدمة هي كذلك خاضعة لنفس منهج المثال في العمليات الحسابية ، والعلوم الطبيعية لا تنفك عن ذكر أمثلة والاعتماد بطريقة كلية او شبه كلية على هذا الاسلوب ، وحتى لا

يقع الخلط والتشويش عند القارئ وقبل البدء بإثارة أسئلة رئيسية في هذه الورقة فالأولى تحرير لفظة (المثال) لغويا.

فقد ذكروا معانٍ كثيرة لمادة (مثل) ولا داع ان نخوض في كل تلك المعاني فما يهمنا في البحث العلمي هنا هو المثال الذي هو المقدار مأخوذ من الشبه ، والمثل ما جعل مثالا أي مقدارا لغيره يحتذى عليه ، وفي اللغة العربية يُقال مَثّلَ له الشيء صوره حتى كأنه ينظر اليه [١] . وفي اللغة الانكليزية وبحسب استقصائي فإن لفظ المثال في اللغة العربية يقابله لفظة (example) في اللغة الانكليزية والذي ذُكر له معنيان لترجمة هذه اللفظة أحدهما أنه اسم لشيء يبين القاعدة العامة حول معرفة شيء ما كقولهم إن القاموس يعطي عدة امثلة لكيفية استعمال الكلمات في اللغة الانكليزية ، والمعنى الثاني الذي ذكروه في لغتهم للفظ المثال هو الشخص أو الشيء أو النوع لسلوك جيد ، ويجب أن يكون ذلك السلوك مُقلدا أو مستنسخا كقولهم هو ذكي ويجب أن يكون مثالا لنا جميعا أي انه قدوة لهم .

والمعنى الأول هو الأقرب للمعنى المُختار في اللغة العربية وسيكون المثال الذي سنبحثه هنا هو البيان والتصوير والتشبيه للشيء بمقدار معين كأنه ينظر اليه ، وهو يتوزع في معاجم اللغة بين هذه المفاهيم التي تكون محسوسة تارة أو مجردة تارة اخرى فهو التسوية

---

(١) راجع قاموس المعاني .

،المماثلة ، النسبة ، النظير ، الحديث ، الصفة ، الخبر ، الحجة ، العبرة ، الآية ، المقدار ، القالب ، الانتصاب ، نصب الهدف ، الفضيلة ، التصوير ، الالتصاق بالأرض ، الذهاب ، الزوال ، التنكيل ، العقوبة ، القصاص ، الجهاد ، الفراش ، النمط ، الحجر المنقور ، الوصف والانابة (٢) .

والآن لنبدأ بإثارة سؤال أولي سيكون بوابة لأسئلة من جنسه :

هل يمكن للمثال أن يعطينا علما ؟

والمثال في هذا السؤال هو المعنى المُختار من بين مجموعة المعاني التي تم عرضها ، والامثلة بالمعنى الذي اخترناه من التقريبات المهمة في حياتنا اليومية والتي نستعملها بدرجات متفاوتة حسب الطبيعة التفكيرية للفرد ودرجته الثقافية وقدرته العقلية وغيرها من الاسباب التي تساهم بعضها أو كلها في صناعة المثال بالنهاية ، وهو مما له دلالات لغوية احياناً ومنطقية احياناً أخرى .

والمثال هو نتاج لعملية فكرية سابقة له تبدأ من عَرض الافكار وتتابعها مع بعضها البعض للوصول الى نتيجة مُحددة واستيعاب المساحات المنسية للمجهول وتوصيف الأفكار بعد سفرها الطويل في ممرات المعرفة المتفاوتة السعة، ليكون المثال هو الحركة الذكية التي

(٢) راجع كتاب الامثال العربية والعصر الجاهلي لـ محمد توفيق / ص ٣٣

يخترعها الفكر ليستوعب كل ارهاصات تلك الرحلة الفكرية الصعبة احياناً والسهلة احياناً أخرى حسب المادة المبحوث فيها ، لكن لماذا يخترع الفكر المثال ؟ لماذا لا يسير الفكر من مقدماته إلى نتائجه من دون صناعة المثال ؟ فالفكر وحده وبما يمتلكه من إمكانيات وقدرات ذاتية يكفي أن يمسك ذاته عن الاستعانة بأي شيء خارجها ، فالمُقدمات التي سلكها بداية لابد ـ وبحسب تفكيره المنطقي ـ أن تقوده إلى نتائج محددة محصورة ومضيقة.

لا أرى نفسي هنا سوى أني أعرض سؤالاً داخل السؤال الذي عرضناه (لماذا يخترع الفكر المثال؟) وهل يستطيع الفكر أن يعرف إمكانية توصله الى نتائج محددة من دون أن ينطلق من المثال؟ وهل يستطيع أن ينال تلك النتائج من دون الاستعانة بأمثلة على طول الطريق؟

ولو فرضنا أن الفكر تجاوز كل هذا من دون الاستعانة بأي مثال كيف سيتأكد من قدرته على تأكيد النتائج التي توصل اليها؟ وهل صناعة المثال ضرورية في ايجاد تلك النتائج؟

لا نريد أن نتولى إجابة هذه الاسئلة بطريقة تباعية ممنهجة في هذه الورقة وسنترك أجوبتها تُولد بين كلماتها.

(٨)

كيف سأبدأ بعرض المثال إذا لم ابدأ بذكر مثال عن كيفية الاستعانة بمثال لكن لماذا احتجت إلى هذا المثال كي أعرض المثال الفكري؟

ربما أقرب الأجوبة و أسرعها حضوراً وبحسب تفكيري هو أن استعمالنا للمثال لا يخلو من فائدة ربما ندركها بتفكيرنا وهي أن المثال يمر بمرحلتين فكريتين:

المرحلة الأولى: هي مرحلة المثال وبيئة نشوئه وفي هذه المرحلة قد يثار سؤال :

هل يمكن اعتبار ان الفكر قد سار باتجاه خطوات تفكيرية خالصة تنجذب ذاتيا نحو المجهول المطلوب فكريا ؟ ولماذا لا يتحمل الفكر ذلك المجهول ؟ وهل يمكن أن نتصور فكرا حاملاً لمجهول ويكون حينها عندنا تركيبة من تفكير خالص ومجهول؟

والمرحلة الثانية: مرحلة صناعة الفكر وديناميكيته الداخلية .

لا يقلق القارئ فلا نزال ضمن حدود الاسئلة الأولية ولم نبتعد كثيرا عن تلك الحدود الاستفهامية.

إن السؤال عن المجهول الفكري هو مجهول ايضا وأي جواب نقدمه لا يعدو كونه جواباً يحاول ان يُفسر حركة الفكر نحو المجهول

وهو كذلك لا يعدو كونه جواباً لا يمكن التأكد من صحته لأن الجواب هو عن سؤال:

لماذا يُحاول الفكر كشف المجهول؟

وكل جواب سيعرضونه لا بد له أولاً أن يتجاوز هذا السؤال فكيف إذا كان الجواب باحثاً عن هذا السؤال نفسه، فلا يُتعب البعض نفسه بالبحث عن نظريات وترقيعات من هنا وهناك إلا بعد الغور في مفردات هذا السؤال .

وعدم إيجاد الجواب ـ وهو النتيجة المتوقعة ـ امر من الطبيعي تقبله بعدما ذكرناه ، يمنع بحسب تفكيري الدخول في أي نظرية باحثة عن قيمة المعرفة وماهيتها وحدودها ،ولا بأس أن أُعيد هنا ما ذكرته سابقاً إن عدم معرفة جواب واضح لهذا السؤال (لماذا وكيف يُحاول الفكر كشف المجهول؟) لا يمنع من صناعة نظرية معرفة فحسب بل يمنع من ايجاد أي تعريف لنظرية المعرفة لأن أي تعريف وضعوه انما هو منطلق من نظرية معرفة سابقة ولأن نظرية المعرفة السابقة لا يمكن ولادتها اصلاً إلا بعد تجاوز هذا السؤال (لماذا وكيف يُحاول الفكر كشف المجهول؟) فتعريف نظرية المعرفة يحتاج إلى نظرية معرفة ونظريات المعرفة لا يمكن إيجادها من دون ايجاد جواب للسؤال المذكور وإيجاد جواب لهذا السؤال بحسب تفكيري غير ممكن لما

ذكرناه من ان كل جواب لابد أن يكون مُتجاوزاً لهذا السؤال لأن الجواب حينئذ سيكون سؤالاً لا جواباً ولا يمكن اعتباره جواباً بحسب تفكيري ،وكيف سيكون جواباً وهذا الجواب مُتوقف على فهم آلية اكتشاف المجهول والتي يريد السؤال بدوره اكتشافها؟

لنرجع إلى المثال الذي يسعى الفكر إلى عرضه ، وكما قلت أرى نفسي تتوق لذكر مثال لتوضيح المثال فأنا مضطر ـ ولا أعرف إلى الآن لماذا هذا الاضطرار ـ أن ابدأ بمثال لأدرس تفاصيل المثال فحين أريد ان أقرب لطفل صغير عملية جمعية عادية كأن أجمع رقمين من عددين طبيعيين واضحين لطفل صغير نجد انفسنا من حيث نشعر أو لا نشعر أن نشرح العملية الحسابية المعنية بذكر مثال وربما مجموعة امثلة وليس مثالاً واحداً لكن لماذا استعملنا هذه الأمثلة؟

لماذا لم نتحرك وفق الاستدلال الفكري الطبيعي ،لماذا احتاج الفكر إلى هذه الخطوة في سلسلة التفكير؟ وقبل الإجابة فمن الجدير بالذكر أن نسأل: هل أن كل فكر يستعمل المثال؟

وجواب هذا الأمر قد لا يكون دقيقاً وهو جواب قد يستغرق أكثر مِن بعُد بحثي فربما تكون بعض ابحاثه استقرائية تجريبية وبعضها استنتاجية بحثية وليس هذا مهماً الآن فما يهُمنا هو ذلك الفكر

المستعمل للمثال ،ولماذا احتاج الفكر الى هذه الخطوة في سلسلة التفكير؟

قد يرد في ذهني جواب سريع وروتيني لاحظته في نفسي حين استعمل المثال وهو أن المثال يستعمل لتوضيح الأفكار فانا حين انطلقت من مثال الجمع الحسابي بين عددين أستعمل هذا المثال لتوضيح المثال ودراسته، لكن هل يجوز لي استعمال مثالاً في دراسة مثال الا يجدر بيّ أولاً أن اتقن تعريف المثال.

ليس مهماً هنا أن أعيد التعاريف اللغوية للمثال وليس هنا محله ونكتفي بالقول التوضيحي أنه مجرد فكرة تماثلية مع أفكار تشترك معها بالنوع ففكرة الجمع بين تفاحتين للطفل الذي لا يزال بصدد تعلم مبادئ الحساب بين عددين طبيعيين يفترض أن تشترك بالنوع مع جمع العددين.

إن ما يُحير بهذه الخطوة الفكرية هو كيف أن الفكر استطاع ان يستبدل الأفكار المجردة بصور يبدو أنها أقل تجردا ؟ فاستبدال التفاحة مثلا بالرقم المُعين عند تعليم طفل يمكن أن يكون اسهل في التعامل عند الفكر المولد لهذا الاستبدال وكذلك هو أسهل عند الفكر المُتلقي للمثال .

والسؤال: هل أن عملية الاستبدال صحيحة؟ ثم ما الدليل على صحة عملية الاستبدال لو كانت صحيحة؟

إن عملية الاستبدال في المثال البدائي الذي ذكرناه إتجاه عملية حسابية عادية جداً قد جعل الفكر يستنجد بذلك الاستبدال بشكل فجائي، هذه الحالة ليست دائمة فأحياناً لا نجد ذلك الاستبدال أو اذا تحقق ذلك الاستبدال فهو سيقع بدرجات متفاوتة فبعض الأمثلة تحصل بسهولة عند المُستدل بها وبعضها يواجه صعوبة في عملية الاستبدال وأكيداً أن بعضها مؤثر اثناء التلقي وبعضها أقل تأثيرا وبعضها يعتبر التفاتة ذكية جداً وبعضها ليس ذكياً وباهتاً في استبداله ، ربما بعض أو كل هذه الصفات نجدها في الامثلة المطروقة في العلوم.

لكن يبقى السؤال الذي عرضناه:

هل إن عملية الاستبدال التي حصلت هي عملية صحيحة؟ كيف نستدل على صحة هذه العملية ؟ هل أن استبدال التفاحة الواحدة بالعدد الطبيعي صحيح؟

أجد نفسي مضطراً إلى استعمال الأمثلة ولا أدري هل أن الاضطرار لأجل الرغبة الشديدة في التوضيح ، ربما هو أمر نفسي أكثر منه علمي ، وهذه نتيجة لا يمكن الركون اليها فقد يكون المثال

امراً علمياً وليس نفسياً وربما العكس، فهل العلة النفسية للمثال ذريعة كافية وحجة متينة في امكانية حدوثه؟

اضافة إلى عدم إثبات العلة النفسية في ذلك فهو بحث مستقل ويحتاج الى تحقيق ربما هو من اختصاص علوم أخرى باحثة في هذا المجال.

لكن ما يهُمنا هو أن الأمر النفسي في استعمال المثال لا يمكن اعتباره لغة علمية مجردة بخلاف الدافع العلمي للمثال والذي حاولنا ترجمته بالتوضيح والبيان أو غيرها من التسميات ـ المهم ان التفسير العلمي يحاول ارجاع المثال الى نقطة فكرية لا نفسية ـ لكن هل ان الفكر يتجرد عن النفس في استعمال المثال؟

لا استبعد عدم تجرده وان كان ايجاد آلية بين الدوافع النفسية وبين ولادة الافكار خارج عن كلامنا لكن ما اكتفي به هو استبعاد التجرد وهذا الابتعاد ربما نجده كثيراً في روتيننا اليومي ، فإذا قبلنا به حينها سيرجع الأمران (النفسي والعلمي) بعضهما لبعض وعندها ستكون دوافع صناعة المثال غير محددة بنظام محدد لكن هذه الدوافع سواء كانت العلمية أو النفسية والتي استطعنا ادراكها بتفكيرنا بنتيجة واحدة وهي امكانية الفكر وسعته في استعمال هذا الأسلوب التمثيلي وقدرته على صناعة المثال .

إذن معرفة البيئة الاولية المُولدة للمثال سواء كانت النفسية أو العلمية غير مجدية في الاجابة على السؤال الأهم :

هل أن عملية الاستبدال في المثال صحيحة ؟ وما الدليل على صحتها؟

لا أجد نفسي إلا ان ارجع إلى المثال لتوضيح الصورة لكن كيف سأتأكد أن ذلك المثال قد تجاوز السؤال المهم الذي تم عرضه وهو هل أن مثالي الذي سأعرضه لدراسة المثال صحيح ؟ وما الدليل على صحته ؟ إذا كان السؤال الذي تم عرضه لم يُحل بَعد ، هل يصح لي أن اتنازل لفترة مؤقتة عن هذا التشدد الفكري وآخذ مثالا لدراسة المثال ؟

انا شخصيا وبحسب تفكيري لا استسيغ هذا التنازل الفكري ، ثم لو فرضنا أن هذا التنازل الفكري مقبولا في مثال محدد بعينه فما الدليل على صحة تعميمه لأمثلة أخرى ؟ وهل أن الأمثلة كلها متشابهة كي يكون أخذ مثالاً محدداً مغنياً عن دراسة كل مثال آخر؟ هذا ايضاً من الاسئلة الكبيرة في هذا المجال.

لا يقول المفكر هنا أن الاستقراء قد ينفع في تقليص هذا الكم من الاسئلة ،فهذا الكلام غير دقيق علمياً من جهة الاستقراء نفسه مما لا مجال لعرضه هنا اضافة إلى ابتناءه على تساوي الأمثلة نفسها وهو أمر

بحاجة إلى إثبات ويكفي للقارئ أن يقارن بين نماذج منها ليجد الفرق واضحاً بينها.

وإلى هنا وجدنا انفسنا أمام صعوبة في اختيار مثال لدراسة صحة المثال أو دليل الصحة، إذن لنعيد النظر في دراسة المثال في محاولة أخرى ومن زاوية مُختلفة عسى ان نصل إلى النتائج المرجوة.

ولنسأل سؤالاً آخراً: هل هنالك مثالاً أصلاً؟

ربما الجواب سيكون سريعاً ، من الطبيعي أن يوجد مثال في كل علم ،وهذا امر واضح ولا يحتاج إلى سؤال أصلا ، كذلك يمكن تأكيد الاستدلال بما ورد في الكتب الإلهية مِنْ ذكر أمثلة واضحة وصريحة في ذلك كتمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة (٣) .

وهنا اجد نفسي اضرب مثالاً لذلك فهل مثالي صحيح ؟

ربما أستطيع أن ابرر لنفسي إمكانية الاستعمال لأنَّ هذا المثال الذي ذكرته نقلي وانا مجرد ناقل لذلك المثال لا أكثر فانا لم أقل حقيقة انما انا ناقل لذلك المثال فقط أما صحة تمثيلي فهي إضافة إلى أنها نقلية وهي معتمدة على صحة المصدر الناقل فإذا صح صحت امثلته فيمن يعتقد بصحة ذلك المصدر الناقل للمثال ، ولا معنى لذلك المثال عند من لا يعتقد بصحة الكتب الإلهية ولا يمثل هذا

(٣) اشارة الى قوله تعالى{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } (سورة إبراهيم ٢٤)

المثال إلا كلمات تخضع تحت مطرقة الاسئلة الشديدة التي تُعرض على أي مثال يُطرح.

أرى أننا ربما مسكنا بطرف الخيط اتجاه صحة الأمثلة ، فالمثال هنا أخذ صحته بالاتباع ولولا صحة غيره لما صح . إن هذه الفلسفة في التعامل مع المثال قد يسوغ لنا استعمالها مع أمثلة أخرى ، فلو رجعنا إلى مثال العملية الحسابية البدائية التي نعلمها للأطفال وهي الجمع بين عددين طبيعيين وصناعة مثال يستعمل الاستبدال أي استبدال موجودات عينية بتلك الارقام المجردة ومعيار صحتها انطلاقا مما ذكرناه هو قول الرياضي نفسه على صحة المثال المستعمل ، فالمثال المضروب في العملية الحسابية البدائية يمكن اعتبار صحته من نفس الكتاب الحسابي الذي ذكر المثال والذي بدوره يعتمد على قوة الوثاقة اتجاه عالم الرياضيات الذي قام بعملية الاستبدال . ربما من السابق لأوانه ان اتحدث عن مفاهيم واسعة كالمجرد والمعين بدلا من الحديث عن نفس الاعداد ومقابلاتها الاستبدالية لكني لا أراه مضراً بالفكرة الأولية التي تسير الورقة تباعا في عرضها .

وعلى أية حال فالمثال مضيق الفرصة في ثبوت الصحة ما لم يقترن ذلك الثبوت بصحة البيئة التي تضم الفكرة والمثال ، ولا يكون المثال عندها إلا تابعاً في إثبات صحته من نفس البيئة المثبوتة الصحة مُسبقا أما إذا كانت هذه البيئة غير ثابتة الصحة بسبب فكر معين فلا

معنى حينئذ لثبوت صحة المثال ، وكذلك الحال لو كانت الصحة إجمالية الثبوت فمن الممكن عندها ان يكون الجزء غير الصحيح متضمناً في المثال وما استند عليه ذلك المثال وبالتالي نرجع الى نقطة البداية في اثبات صحة المثال.

ولو رجعنا إلى مثال الكتب السماوية وبعض الأمثلة المذكورة فيها والتي صارت صحيحة عند مَن يعتقد بصحتها وهي ليست كذلك اجمالاً أو تفصيلاً عند من لا يعتقد وإلى هذه النقطة من العرض التسلسلي لم يتوفر عندنا سبب ذاتي واحد على صحة المثال.

وما تحقق من اسباب خارجية عرضية لم توفر إلا حالة افتراضية اتكائية على صحة المثال المحدد بعينه وان هذه الحالة الاتكائية لا تصمد طويلا امام تبدل القناعات والاعتقادات وبالتالي سيرجع المثال طالبا لإثباتات ذاتية له لم نصل اليها إلى حدود هذه النقطة من المستوى التفكيري لهذه الورقة.

والآن لنحاول التفكير بطريقة اخرى من خلال ايجاده محاكاة افتراضية لولادة المثال ونثير سؤالاً مهماً في هذه النقطة بالذات :

هل يمكن ان يكون المثال في حقيقته لا مثال؟ وبعبارة ثانية : هل أن المثال هو فعلاً مثال أم لا وجود لهذا الشيء أصلاً ؟

وبعبارة أخرى : هل هنالك صورة أولية خالية ومجردة مطلقاً من المثال ؟ وهل هناك مثال خالٍ من الصورة الأولية المراد تمثيلها ؟

ولفهم هذا الأمر قد نحتاج إلى ذكر مثال وهنا سنرجع مرة أخرى لمشكلة المثال في فهم المثال ولتجاوز هذه المشكلة يمكن الاستغناء عن المثال والاكتفاء بالسؤال المعروض فهل هنالك صورة أولية خالية ومجردة مطلقا من المثال؟

بحسب تفكيري أن هذه الصورة الأولية لا يمكن تحصيلها مجردة من دون الانطلاق من مثال، ونحن ندعو القارئ الكريم هنا أن يحاول استخراج صورة مجردة من دون الاستعانة بمثال واحد ، ربما محاولتنا لتجربة ذلك وعدم قدرتنا للوصول إلى نتيجة في ذلك ـ بحسب تفكيري ـ يجعلنا أمام إعادة نظر في قدرتنا على صناعة صورة مجردة من دون مثال ، هل أن الارقام التي ندرسها في العمليات الحسابية ولدت في تفكيرنا من دون الحاجة إلى أي مثال دال عليها؟

لو قبلنا بهذه النتيجة سنكون أمام سؤال عن كيفية ولادة هذه الارقام من دون أي مثال .

من الجدير بالذكر أن تاريخ الرياضيات القديمة يخبرنا عن وجود علاقة وثيقة بين الحاجة الفعلية لإيجاد حلول متعلقة بالحياة اليومية الروتينية وبين أفكار مجردة ناتجة من تفاعل الفكر مع تلك الحاجات

يمكن اعتبارها إضافة لما ذكرناه ذات دلالة على ايجاد ايحاءات فكرية مولدة لهذا الشيء الذي اسمه الأعداد.

لا أريد أن اجعل ما اذكره هنا عن الأرقام يُحدد جهة البحث فالأمر غير مُنحصر بها ، يمكن للقارئ التأمل في علوم أخرى، كيف يمكن أن نصنع صوراً من دون أمثلة تنطلق منها وتتكئ عليها تلك الصور الفكرية ؟ ثم لماذا نسمي تلك الأشياء التي يتكئ عليها الفكر أمثلة ؟ لماذا لا يمكن اعتبارها أي شيء آخر لإيجاد حالة صورة فكرية؟

والمثال سيكون عندئذ شيئاً آخراً مُختلفاً عن تلك الصور التي اتكأ عليها الفكر ابتداءً، لكن ماذا سيكون المثال؟ اليس المثال حينها سيكون داخلاً ضمنا تحت أحد تفسيرين :

اما أن يكون هو نفس تلك الأشياء التي اتكأت عليها تلك الصور ، او يمكن توسيع الحالات الابتدائية التي كانت تلك الصور الذهنية معتمدة عليها ، وبالتالي سيكون المثال في هذا المستوى التفسيري معتمدا على تعميم الحالة ونقلها من الخاص إلى العام.

فكأن الصور الفكرية بدأت ولادتها بملاحظة حسية مجردة لتعينات خارجية تم من خلالها صناعة تلك الأشياء التي نسميها الأفكار ثم إن تلك الأفكار تبدأ بالتوسيع ، وهذا التوسيع اما أن

يكون من ذاتها لذاتها او توسيع من الخارج لذاتها أو من ذاتها إلى الخارج [٤] ، فإذا كانت من ذاتها لذاتها كانت الأمثلة هي نتاج صناعة فكرية مجردة ليس لها صلة بالخارج وبالتالي من الصعب صناعة أي مثال يحمل تطبيقاً خارجياً وعندها ستكون أمثلتنا هي عبارة عن تقنيات يصنعها الفكر لغاية محدودة ، ربما نعرف بعضها أو لا وقد ذكرت هذه الورقة جزءاً من مضمونها كالبيان وزيادة الوضوح .

لكن هذه التقنية لها حدود في الفكر الواحد فهل يمكن تجاوز حدودها إلى فكر آخر ؟ فالمثال الذي يصنعه فكري استند على قدرة فكري في صناعة المثال وأن محاولات فكري في إيصال ذلك المثال للآخر لا تخلو من أسلوبين : فإما أن يكون الفكر الآخر له تقنيته الخاصة المختلفة في صناعة المثال وبالتالي هنالك اختلاف في التمثيلين بينهما ، أو أن يكون الفكر الآخر غير قادر على صناعة أي مثال بتقنية متقدمة وسيكون عندها خاضعا للمثال المعروض عليه ربما بحسب الإرهاصات الأخرى للخضوع .

وعلى كلا الصورتين فالمثال الذي يولده الفكر بذاته سيواجه مشكلة حقيقية في نقله إلى أي فكر آخر ، وما يقع من نقولات فكرية

---

(٤) لا يخفى على القارئ أن هذه التصورات الافتراضية الحصرية العقلية هي بحسب التفكير وليراجع القارئ ورقات البحث السابقة .

بين العقول المولدة للأمثلة بذاتها يدخل ـ بحسب تفكيري ـ ضمن محاولات السيطرة والاقناع الفكري ، لذا نجد أن حالة الاقناع هذه لا تقع ، ولا تكون مؤثرة إذا كان صاحب المثال غير مؤهل لذلك الاقناع الفكري فلا يكون مثاله ذا تأثير مجدٍ حتى لو تمت ولادته بصورة علمية في منطقته الفكرية.

قد يكون كلامي هذا غير متقن من الناحية الضبطية العلمية كونه أخذ وجهة نظر قابلة للمناقشة وأعتمد على الاقناع الذي في قلبي شيء منه كحالة وجودية نفسانية لكن لأكن أكثر انصافا وأستفد مما ذكرته كحالة ملاحظة ربما نفتقد إلى تفسير محدد لها.

أما صناعة المثال من خلال التوسيع الفكري من ذات الأفكار إلى الخارج فهو سيواجه مشكلة التطابق بين تلك الأفكار والتعينات الخارجية فَلِنَقُل أننا قبلنا بولادة المثال من الخارج الذي أخذ منه لكن توسعة المثال إلى خارج آخر غير المأخوذ منه ذلك المثال ، فعندها نحتاج إلى مبرر جيد لتلك التوسعة ولا أجد ـ بحسب تفكيري ـ مُبرراً مقنعاً عن امكانية التوسعة مع عدم توفر أي دليل على الانطباق بين تلك الصور المثالية والخارج الموسع له ذلك المثال.

(٢٢)

إن مبرر الانطباق الذي شككنا بصحته بين المثال والموجود المُعين الموسع له ذلك المثال يمكن ان يتوسع ليصل إلى الانطباق بين الوجود العيني الخارجي وبين فكرة المثال نفسه.

أما التوسيع من الخارج لذاته فيمكن تصور حدوثه ـ بحسب تفكيري ـ أن هذه الموجودات المتعينة خارجاً كأمثلة متوسعة يفترض حصولها ووقوعها ابتداءً في مرحلة سابقة خارجية ويجب ان يكون الفكر داركا لهذا الأمر خارجاً.

وهنا نجد انفسنا أمام الفكر وأنه هو الأداة المهمة لإدراك تلك السعة الخارجية لكن إلا نجد أن اعتمادنا على هذا النوع من التفكير يجعلنا امام فكر مُتوسع لذاته ؟

فإن الفكر حين يستوعب تلك السعة الخارجية لابد أن يكون متوسعاً بذاته لإدراكها إذ أن عدم توسعهِ يعني تضيقه وبالتالي كيف استطاع إدراك ذلك التوسع في الموجودات العينية الخارجية وإذا اعتبرنا أننا أمام فكر غير متوسع لكنه توسع تباعا بتوسع الخارج العيني الذي هو مصدر المثال في هذا الفرض المذكور فعندها سيكون ذلك التوسع قد ادركناه بتوسع تفكيرنا وإلا كيف ادركنا قدرة فكرنا التوسعية بتوسع الخارج ؟ لولا أن نفس الفكر يمتلك تلك السعة الادراكية.

إذن وفق هذه الصور التي ادركتها ـ بحسب تفكيري ـ لا يمكن إثبات ما يسمى بالمثال ولا أرى المثال الذي يستعمل في أي علم إلا حالة توضيحية بيانية تفتقد للدقة العلمية دائما . وبالترقي أكثر فإن ما يسمونه المثال هو بالحقيقة نظرية مستقلة بذاتها وكل مثال هو نظرية تحتاج إلى إثبات بذاتها ، أما قبولها (أي هذه الأمثلة) فإنها عملية غض نظر فكرية ـ هذا ما أراه بحسب فكري ـ وإذا ترقينا أكثر فإن ما يسمى بالمثال لا يمكن وجوده أصلا ، ويجب ان يكون المثال المعروض في أي علم لا يعدو كونه عملية تماثلية صنعها العقل البرهاني مملوءة بالمشاكل التي لا يمكن تخطيها بالعقل البرهاني نفسه .

وهذا الأمر كما هو عويص التحقق في العلوم العقلية والمنطق الرياضي والعلوم الطبيعية فهو أكثر صعوبة في المفاهيم الدينية التي يستعملها أهل العلوم الدينية ، اذ ان التمثيلات التي يطلقها أصحاب هذا الاتجاه لا تنفك مُتعرضة لمشاكل برهانية واستدلالية إضافية على طبيعة المشاكل التي يتعرض لها كل علم فالتمثيلات الدينية تتجاوز الحالة العقلية والحسية في صناعة المثال إلى حالة استبدال المعقول بالمحسوس ، ولا ارى بعد ما ذكرناه اي صحة دقية لأي مثال يقربه اهل العقيدة في كتبهم بل ان المثال ـ من الناحية العلمية ـ ممنوع عليهم.

إن ما ذكرناه في هذه الورقة هو صعوبة استبدال المحسوسات مع بعضها البعض بطريقة صناعة المثال مع الحفاظ على الانضباطات العلمية في ذلك وتحصين عملية الاستبدال المذكورة من الخروقات البرهانية المُضادة .

فكيف إذا تم إضافة خرق عقلي عميق إلى هذه الخروقات البرهانية المُضادة لآلية صناعة المثال ؟

إن استبدال المعقول بالمحسوس نافع في ايجاد تصور فكري لذلك المعقول ،لكن هل يمكن للاستبدال المذكور ان يُتقَن ؟ هل ان عملية الاستبدال هذه مُتقَنة الجهات؟

إني حين اخذ معقولاً مثل الابتعاد عن تعاليم شريعة دينية معينة ـ وقد درسنا اضطرارنا إلى ذلك كعملية فكرية اضطرارية غير مُستحكمة من الخروقات البرهانية المُضادة ، لكن ربما أهون الأمر على نفسي وأقول: أن هذا الذي ذكرناه يدخل ضمن المثال المنقول فأنا حقيقة لم أصنع المثال إنما نقلته إلى فكر السامع .

على أي حال إن استبدالنا للابتعاد عن تعاليم شريعة معينة بصورة حسية لإنسان يغرق في بحر مظلم شديد الظلمة بحيث ان الرؤيا تنعدم كلياً عند ذلك الشخص فإننا بالحقيقة صنعنا مثالاً حسيا لذلك الأمر التعقلي لكن صناعتنا لهذا المثال وبحسب تفكيري غير

صحيحة فيما لو أرجعنا تلك الصناعة إلى بيانات العقل البرهاني ، فإن التمثيل بالانحراف عن تعاليم دينية معينة يحتاج إلى فهم كامل وكلي للانحراف في مرحلته الأولى ثم أن مرحلة تمثيل تلك الصورة التعقلية الإنحرافية تحتاج الى ادراك وتعقل كلي لكل الصور المُحتملة الانتخاب والاختيار والتي سنختارها في مرحلة لاحقة لمرحلة الإدراك والاحاطة الكلية للمعقول في مرحلته الأولى وهذه الإحاطة لتلك الصور الانتخابية أراها بعيدة المنال بحسب تفكيري ـ فإني عاجز عن إدراك كل الصور الانتخابية التي ستكون مرشحة لترجمة ذلك المعقول ، إذ إن إدراكي الفكري لتلك الصور لا يخلو من الجزم بالإدراك والمطابقة ، فإن اختياري لشخص يغرق في بحر مظلم تساوي حالة اختياري لشخص يدفن في جوف الأرض أو شخص اعمى أو شخص اضاع الطريق او شخص يتحرك ويعود إلى نفس النقطة هذه صور تفترض خطأ الممارسة بالابتعاد الديني ، أما لو فرض الفكر البشري عكس ذلك فإن الصور المُنتخبة عندئذ ستكون معكوسة لما ذكرناه فربما يكون تمثيل ذلك الابتعاد الديني عند الملحد هو عبارة عن شخص اظهر رأسه إلى الشمس المُشرقة او خرج إلى مكان فوق الأرض أو مسك الاتجاه الصحيح في حركته المُضطربة...الخ من الأمثلة التي تكون صورة منعكسة عن ذلك المثال ، وانعكاسها متوقف على قيمة ونوع المعرفة المُتبناة.

ألا نجد انفسنا هنا أن المثال الذي يكون صورة استبدالية حسية يواجه صعوبات في حسمه من ناحيتين ، الأولى : صعوبة الاحاطة الحسية بالصور المُستبدلة ، والثانية : إن نفس عملية اختيار الصورة لا ينفك متجردا عن المعتقد الديني القبلي للاختيار والموروث الثقافي الذي يتبناه الممثِّل (بالكسر) اثناء صناعة ذلك المثال.

إن تمثيل رسام الكاريكاتير لصور ومفاهيم تعقلية عقائدية قد يواجه رفضاً وقبولاً من اتجاهات توافق أو تعارض تلك المفاهيم وهذا الاتفاق والاعتراض يجعلنا نعيد النظر في أن المثال المتجسد بالصور الكاريكاتورية غير متجرد عن معتقدات وثقافات تكون هي الخيوط الخفية في صناعة نتائجه النهائية ولا يمكن حينئذ أن نركن إلى رسم معين ونعتبره مادحا أو قادحا لمعقولاتنا إذ إن تلك الرسوم هي انعكاس لأفكارنا ومعتقداتنا لا أكثر.

فأمثلتنا هي افكارنا نعطفها كما نشاء ونغيرها كما نشاء ولا اجد نفسي إلا أمام صعوبة شديدة في صناعة مثال لم يكن انعكاسا مغلوطا لنظرية أو مثال هو نظرية مستقلة بذاته تحتاج إلى برهان ، أو مثال يتكئ على عقيدة وموروث ثقافي ، هذا إذا لم تكن تلك العقيدة سارية في كل الصور التي ذكرناها.

(٢٧)

أنا ـ وبحسب تفكيري ـ أجد نفسي أمام مهمة شاقة في البحث عن مثال اي مثال يمكن أن يسعفني في صناعة نظرية معرفة وذلك المثال خال من كل المشاكل العلمية الدقية .

وما نستعمله من أمثلة في أي علم سواء كان عقليا مجردا او فلسفيا أو طبيعيا كلها غير دقيقة من الناحية العلمية الموضوعية وهذه الأمثلة تتحمل جزءاً كبيراً من الأخطاء التي وقعت في عرض العلوم.

وربما يقول القارئ هل هذا يعني اننا غير قادرين على صناعة مثال؟ ولا يسوغ لنا هذا الاستدلال العلمي التمسك بأي مثال ؟

والجواب ـ بحسب تفكيري ـ هو أن المثال العلمي غير متحقق ولا يمكن تحققه.

وأنا أرى نفسي أمام مثال ممنوع وكل الأمثلة المُستعملة هي تبين صورة انعكاسية لأفكار واضعها مع محاولات فاشلة في جعلها متساوية بصورة مثالية مع منابعها الفكرية النظرية ، فهي في أحسن حالاتها تبين شيئاً وتفقد أشياء ، فكلما صنعنا مثالاً لتبيين حالة معينة فإننا في نفس الوقت نخسر الدقة العلمية في تعقل الأفكار المُتمثَّلة.

ميثاق طالب كاظم

١٦شوال ١٤٣٧هـ

صدر للمؤلف

١. اسم الزمان العلمي في المشتق الاصولي .
٢. قواعد في المستقبل المعنوي .
٣. قواعد في المستقبل الفكري .
٤. بين التوهم والتعقل – فلاسفة الأديان في الميزان .
٥. رحيق الحكمة .
٦. سلسلة ورقة بحث (١) : فكرة تهذيب المنهج (العلمي - القرآني) / البحث (الفيزيائي ـ القرآني) نموذجاً .
٧. سلسلة ورقة بحث (٢) : ضرورة الموقع العلمي للظن في معادلة المعرفة .
٨. سلسلة ورقة بحث (٣) : دحض المعايير الطبيعية في نظرتها للفلسفة الأخلاقية .
٩. سلسلة ورقة بحث (٤) : هل يمكن أن تكون بعض فروع الدين اصوله .
١٠. سلسلة ورقة بحث (٥) : ديناميكية العقلين .
١١. سلسلة ورقة بحث (٦) : المعنى الحقيقي للماهية وبطلان دعوى أصالتها مع الوجود .
١٢. سلسلة ورقة بحث (٧) : التجربة المعرفية المتعالية .
١٣. سلسلة ورقة بحث (٨) : اساسيات علم منطق اللا منطق .
١٤. سلسلة ورقة بحث (٩) : لو كان الله مجرد فكرة .
١٥. سلسلة ورقة بحث (١٠) : المثال الممنوع .

المثال الممنوع

وأنا أرى نفسي أمام مثال ممنوع وكل الأمثلة المُستعملة هي تبين صورة انعكاسية لأفكار واضعها مع محاولات فاشلة في جعلها متساوية بصورة مثالية مع منابعها الفكرية النظرية , فهي في أحسن حالاتها تبين شيئاً وتفقد أشياء ، فكلما صنعنا مثالا لتبيين حالة معينة فإننا في نفس الوقت نخسر الدقة العلمية في تعقل الافكار المتمثلة .

للاستفسار

quran.wisdom2016@gmail.com

07800378214 - 07822723131